صارت حالة استنهاض مقومات التراث فعالة بمقدار ما كانت ذات حضور ايجابي في عملية التحول الثقافي . لقد قادني هذا الموقف للتفتيش عن ثقافة تاريخية تتوازى في مدلولاتها او مضامينها ومشكلات الحاضر . من هنا صارت مهمة الرفض لشروط ملازمة التقنية لوجدها بالانجاز الفني .

٢ - انني منحاز الى تعامل مركزي للتراث . أي ان مجموع الخبرة الانسانية هي التي ينبغي أن تقود الارادة الفعالة للتعبير . من هنا فان اي تفكير باخضاع هذه الخبرة للجغرافية لن يؤدي الا الى وضع محلي هو بالتالي مبرر منطقي للانغلاق والموت .

٣ - ان مجموع الفن العربي لا زال يواجه مشكلته في تأسيس فني وطني . وعلى الرغم من كون هذه المواجهة متغيرة ومتنوعة تبعا لخبرة ونجاحات كل تجربة فنية قطرية . الا ان مجمل الممارسات تلتقي في طموحها على تطوير معارف الجماهير وتأكيد الفاعلية الثقافية ضمن الحياة اليومية . أن وحدات مثل الحرف العربي . النظام الزخرفي ، تكوينات الفولكلور والتراث القديم للحضارات هذه الوحدات هي دلالات ووثائق تطرح دائما . وهذا دليل على نمو الوعي الانتمائي للفنان ، دليل على بداية الموقف ازاء حالات الاستلاب الفكرية .

٤ - ظاهرة الملصق العربي - ينبغي أن تناقش بصورة مستمرة لانها قبل أن تكون ظاهرة متقدمة على صعيد الانجاز الفني فهي احدى الوسائل الهامة في الاتصال مع الجماهير ، من خلال ذلك نفهم مدى الحاجة الى ضرورة توسيع دائرة انتشار هذه الظاهرة التي تتواجد يوميا في الجامعات والشارع والمعمل والمدينة ،ان الملصق وخاصة السياسي منه يمكن أن يختزل الكثير من التعريفات والمدخل المفهومية ، أنه يحيل المشاهد الى توجيه ثقافي خارج الاطر التقليدية ، ولذلك فانه غالبا ما يكون مرهون بمتطلبات عمومية ، لا يعني هذا عزلة هذه المتطلبات على مستوى التقنية وكفاءتها وعن قيمة الافكار وتطابقها مع المعطيات الانسانية والافكار الاجتماعية المتغيرة .

ان العالم الان يعيش عصر الملصقات ذات النوعية الفنية الجيدة والمتحركة .فالملصقات الجافة لم تعد مقبولة في هذا الوقت الذي الجفاف . الفن يتدخل ، بل ، بالاحرى ، ، يأخذ مجراه الطبيعي في الانخراط في الحياة اليومية للناس ، وهذه هي اللغة الراقية والبسيطة التي يمكن عبرها تجاوز الالية المهيمنة .

الملصق العربي يضطلع بدور مزدوج ، فهو اضافة الى كونه يساهم في تكثيف الشأن الجمالي عند المواطن العربي ، يقوم ايضا بوقف مفعول الدعائية المباشرة التي يسعى البعض ، بلا جدوى ، الى اعتمادها كنمط تعليمي يتداخل وشتى قطاعات الحياة . فالعمل الفني الذي يخاطب الوجدان بعفوية .. والعقل بطبيعة الحال دون المرور بقنوات لفظية وبالوان مواعظية هو الذي يستطيع أن ينقل الفكرة بكل تلقائيتها وبكل توهجها الداخلي .

الملصق اذا هو التلقائية ببعديها الجمالي والبنائي ، لكن المشكلة هي أن الكثيرين من « الملصقيين » يعتمدون اعتمادا عشوائيا على التقنية ، فيخرج الملصق وكأنه حلقة جديدة من سوء الفهم الذي يسود بعض ارجاء حياتنا ، فيما تقوم مهمته الحقيقية على تبديد سوء الفهم هذا وايجاد نسق من الحوار العميق والواضح بين المشاهد او الفكرة التي تقف خلف الالوان والتقنيات الاخرى .

لكن هذا ليس تقييما شاحبا ، ففي اعتقادي أن الملصق العربي قد خطا خطوات واسعة في طريق التطور النوعي ، والمطلوب هو التأكيد على مزيد من التفاهم بين العناصر التقنية والعناصر الفكرية في الملصق نفسه .

نبيه البرجي

بيروت
سياسية تقدمية
العدد ٩٣٥ - السنة الثالثة - الاحد ١٢ كانون الاول ١٩٧٦

لقاء مع .. ضياء العزاوي

وثائق الحياة اليومية صارت وسيلة لتشييد أزمنة جديدة للوعي

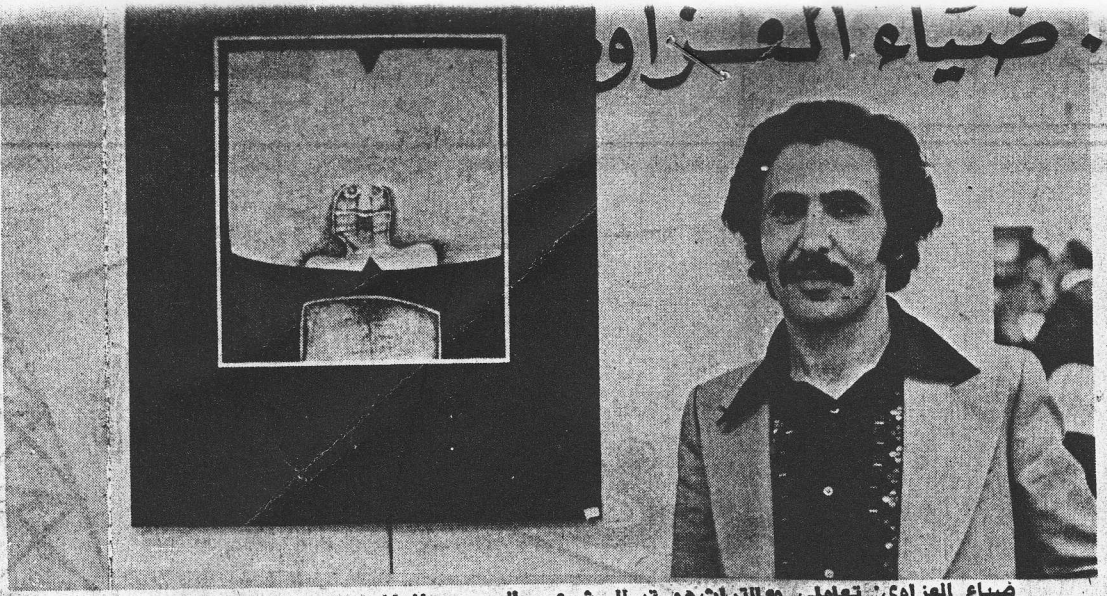

ضياء العزاوي: تعاملي مع التراث هو تسلل شرعي الى الداخل الانساني .

عند ضياء العزاوي ، الفنان التشكيلي العراقي ، ليس ثمة من خط عازل بين الغموض والصحو ، وفي المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للفنون التشكيلية الذي عقد في بغداد ، علق المندوب الدانمركي على لوحات ضياء قائلا : لقد بعثت لي هذه اللوحات حيرة حقيقية ... انني لا أفهم كيف يستطيع هذا الرجل ان يجمع في اللوحة الواحدة كل تلك التأثرات وكل تلك التناقضات ان الحداثة المتطرفة تتجاور والتراث الغابر دون أية حساسيات .. ان اللون الاسود يبشر احيانا كثيرة بانقراض المأساة . ان الخوف يتلاحم والطمأنينة ، التي تتجاوز ، في انفلات لوني جارح حدود السعادة التقليدية .

وهذا التناقض الفريد جعله « ضحية » الشهرة التي قال لي انه يهرب منها حتى لا يتم صلبه في عمر مبكر ، فالتجربة لا تزال تهدر ودورانها حول الضوء قد يفقدها زخمها . وحين قاطعته سائلا : ولكن ما وصلت اليه من نضج يجعل الهروب اجراء ذاتيا بحتا ، فلوحاتك لم تعد قاصرة وبعض النقاد يعتبر ان اعمالك ، بما فيها من تراءوتنوع وقناعات جاذبة ، تمثل ما اطلق عليه سلفادور دالي « السريالية ذات الجذور الضاربة » .

ويجيب ضياء :

- ان المعاناة لم تفسح لي في المجال لكي اقف على مسافة ما من اعمالي ، انني لا اريد ان اكون محايدا ، ولكنني ايضا لا أريد أن أكون منغمسا الى حد الامحاء ، ان الالوان قد تميل الى الخبث احيانا .. فالضراوة التي تجعل الفنان مجرد شاهد . انني ضد الفنان الشاهد ومع الفنان الشاهد - الفاعل لكن سيطرة المعاناة لا تحجب الرؤية المباشرة تماما ، فباستطاعتي ان أفسر أمورا كثيرة ، من بينها التنوع الذي اشرت اليه . ان الانسان العربي هو الان في انتقالية تستلزم مزيجا فذا من الارتباك والمخاض والتطلع الملتهب ، وهذا المزيج لا يمكن التعبير عنه الا في خيارات موضوعية ولونية ممعنة في التعدد . لذا فان النقاد الذين يرون الاحادية في اللوحة انما يحكمون عليها الموت . فليست اللوحة غنائية وحسب ولا هي فسيفسائية وحسب ولا هي تجريدية او رمزية وحسب . انها ذلك التواشج المتفاعل بين اتجاهات تتمحور جميعها حول الانسان .

ما اطلقت عليه انت صفة النضج اعتبره انا مرحلة وسيطة من مراحل المعاناة . النضج قد يعني في منحاه اللغوي البحت موت الحركة او موت الاستمرارية داخل الشخص او داخل العمل . ان المعاناة تعلن عن نفسها بشكل متقطع ، والنقاط الانعطافية البارزة هي مجرد محطات ولن تكون ابدا المحطة الاخيرة ، والا فمعنى ذلك وضع الانسان وجها لوجه امام المقصلة .

انني لا انكر جذوريتي وهي ، دون شك ، ضاربة في العمق ، فالفنان لا يستطيع القفز في فراغ وان قفز يكون واحدا من اثنين ، اما مهرجا او عبثيا ، وانا بحكم التزامي ارفض سطحية الاول وتعسفية الثاني . لهذا فان تعاملي مع التراث هو تعامل ضروري وخلاق ، وهذا ما يحول دون اللوحة والوقوع في الهذيان مهما كانت نية الفنان سليمة ومهما كان المستوى النوعي للموضوع .

ان البعض يعتبر ذلك ازدواجية لا يمكن تبريرها اما أنا فاعتبره ضرورة لقيام نمط خلاق من التداخل بين الماضي والحاضر والمستقبل .

وهذا ليس توغلا في متاهات لا تخلو من البريق ، كما يتوهم البعض بل انه تسلل شرعي الى الداخل الانساني حيث يبدو كل شيء ، حتى اقصى حالات الفرح ، على مقربة جدية من المأساة .

وسألنا ضياء :

١ - يعتبرك البعض الابن المدلل للوثبة الفنية التي اندلعت في العراق منذ الخمسينات ، فهل لنا أن نعرف موقعك في هذه التجربة التي لا تزال في تواصيلتها الخلاقة بعد حوالي ربع قرن من ولادتها .

٢ - انك تتعاون مع التراث ، الا تعتبر ذلك خطرا على لا حدودية الفن عندك .. اي على مستقبل لوحاتك ؟

٣ - يؤخذ على الفنان العربي انغماسه في التيارات « الاخرى » دون محاولة السعي الى تشكيل تيار خاص ، فما هو تعليقك على ذلك ؟

٤ - لقد اصبح الملصق العربي ظاهرة تستدعي الانتباه ، انه يعالج مشاكل الحياة المختلفة : النضال السياسي ، الرفض الاجتماعي ، التطوير الثقافي الخ . فهل انت راض عن المستوى النوعي الذي وصل اليه الملصق ؟

١ - ان أهم سمة لفترة الخمسينات ، أنها قد أوجدت وعلى مستوى الانجاز الفني تلك الانتمائية التي هدمت حالة الاستلاب . ان فكرة البحث في التاريخ الوطني بعامليه الخارجي والداخلي كانت تبدو في تلك الفترة انشغالات شكلية الا انها ومن خلال السنوات التي تلت اثبتت وظيفتها التشكيلية كمعيار حر جماليات وضرورات طريقة العمل الفنية من تلك العناصر الخارجية ، بمعنى العناصر التي كانت ضروراتها تجيء من خلال تفاعلات سطحية مع العصر وليس من خلال بحث متجذر في اجتماعية ونفسية وجمالية الخير العصري للثقافة ، ان اسماء مثل جواد سليم وشاكر حسن ستظل مثيرة للجدال لا لكونها ابحاث فردية مميزة وانما باعتبارها توصلات كانت قادرة فيما بعد من أن تعطي لنفسها مدلات تشكيلية ذات ابعاد خارجية متحدة في أساسها وبدرجة عالية من الاتقان بمجمل التاريخ الوطني .

ان نمو الابحاث التشكيلية وبشكل خاص في مجالات الرسم بعد منتصف الستينات جعل من مهمة تطوير الانتمائية الى حالة وعي كضرورة فنية وحضارية . في تلك الفترة تنوعت الاتجاهات وتعمقت المشاغل التشكيلية على الصعيد الفردي ثم سرعان ما اخذت الجهود الجديدة تكتسب قوة دفع واضحة تجلت في مجمل النشاط الفني للشباب والجماعات الفنية .

كانت تجربتي احدى هذه الجهود . كانت محاولة ذات وعي انتمائي تستنهض البيئة اليومية كاشكال ومضامين لان تمارس وجودها الحي . في البدء كنت أستجيب لاسلوب ذات متطلبات زخرفية عمومية ثم سرعان ما تحولت تلك المتطلبات الى نوع من الخبرة التي مكنتني من تجاوز حالة التراكم التراثي نحو وعي غير مفصول عن واقع يومي منسجم مع شروطه السياسية والاجتماعية والثقافية ، من خلال ذلك